وصية عمر بن عبد العزيز

مسرحية شعرية تاريخية في مشهد واحد

د.غازي مختار طليمات- سورية

(يكشف الستار عن رجل مهيب فوق فراش، وحوله فتى يشبهه، وكهل ينحني عليه، وفارس في زي عسكري قديم)

الفارس: قد غمَّني أن أراك يا «عمرُ»[١]
وقد عراك السقامُ
ما الخبرُ؟

عمر: كأن أنياب ذئبةٍ مضغت جوفي
فقلبي يكاد ينتثرُ
وجفَّ حلقي
كأن حنجرتي صبارةٌ
في جدارها إبرُ

«مَسْلمَة»[٢] النائباتُ تكنُفُنا
وأين من يرعوي ويعتبرُ؟

مسلمة: أسألُ عن ضرِّك الملمِّ
فما عراك من قبلُ مثله ضررُ

الفتى: يقال:
إن الذين عاملهم بعدله
من أميةَ ائتمروا
قد ساءهم منه أن يصادرهم
فدبروا قتله
وما ازدجروا

الكهل: قيل:
رشوا خادماً ليقتله
فدس سماً له كما أمروا
بالأمس عدل «الفاروق» أهلكه
فاغتاله مَنْ بعدله اندحروا
واليوم سبط الفاروق[٣]
أسخط مَنْ بالعدل
مِن بعد سِمْنة ضمروا

عمر: «رجاءُ»[٤] دعواك لا يؤيدها سمع
يدين الجناة، أو بصرُ

الفارس: وأين فرَّ الجناةُ؟

رجاء: شرطتنا تبحث
لا يختفي لهم أثرُ

عمر: لا تظلموا خادماً
وتتهموا من دسّه
إن علّتي قدرُ
أحسّ أني قاربت آخرتي
وأنني مدنف ومحتضرُ
الفتى: يا أبتا
روحي الفداء إذا ما حام
أو جال حولك الخطرُ
عمر: «عبد العزيز»[٥] الحِمامُ حيث مشى
لم تثنه فدية ولا حذرُ
(يدخل الحجرة شرطي يصحب شاباً مكبل اليدين)
الشرطي: «أبا حفص»
قد اعتقل الأثيمُ
وها هو ذا أمامكمُ يقومُ
مسلمة: **(بلهجة غاضبة وقد سلّ سيفه من غمده)**
لينتقمن سيفي منه
عمر: دعه
فإن السيف – إن يغضب – غشومُ
قضائي في حقوق الناس عدلٌ
وفي حقي حليم بل رحيمُ
مسلمة: إذنْ فليعترفْ
من غير سيفٍ ولا حيفِ
لتنقشع الغيومُ
الخادم: كنت حول الدار أسعى في الظلامْ
فالتقاني شبح ملتحف خلف لثامْ
وعلى جانبه الأيمن ينساب حسامْ
خفتهُ
قال: تطامَنْ
ثم أغواني بمعسول الكلامْ
ورمى لي ألف دينارِ
لكي أرمي شيئاً في الطعامْ
قبل أن يطعمه مولاي
فانصعت كأني في منامْ
رجاء: أو ما ارتبتَ؟
الخادم: لم يبقِ ليَ المال ارتياباً أو يقينا
لم أقدِّرْ
أن هذا الشيء قد يؤذي أمير المؤمنينا
كنت مسحوراً بما في الكيس من ألفٍ
رواءً ورنينا
مسلمة: أولم تعرف من المجرمُ؟
الخادم: قد كان بما يخفي ضنينا
عمر: أين ما أعطاكه؟
الخادم: **(يخرج من جيب قميصه كيساً، ويدفعه إلى عمر)**
ها هو ذا
رجاء: إنه مال حرامْ
عمر: وحلال حينما يدخل بيت المالِ
من بيت اللئامْ
يا «بن حيوةْ»
إن للمال على الإنسان سطوةْ
واشتهاء المال أغوى خادمي
رجاء: أقبح بحب المال شهوةْ!
عمر: صادر المالَ
وأطلق طامعاً
حاول أن ينزو نزوةْ
فهوى في الإثم في الدنيا
وفي الأخرى سيهوي طيَّ هوَّةْ
عبد العزيز: كيف تعفو عن أثيمٍ؟
بيَّت القتل برشوةْ
مسلمة: يا أمير المؤمنينْ
كيف تعفو عن خؤونٍ، غادرٍ، وغدٍ، لعينْ!؟

عبد العزيز: إنه مقترفٌ معترفٌ بالجرم جهراً
لا ظنينْ

عمر: قد غفرت الذنبَ
علَّ الله أن يغفر ذنبي
أطلقوه ودعوني ألق ربي
ملقياً وزريَ عن ظهري
وصبري غاسلٌ بالأجر قلبي

مسلمة: أوَلا توصي؟

عمر: بلى! أوصي
«رجاءُ» ادعُ بنيّْ

رجاء: إنهم بالباب
لم يبتعدوا عنه بصبحٍ أو عشيّْ

(يفتح رجاء باباً جانبياً، فيدخل الحجرة أحد عشر ولداً من أعمارٍ مختلفة، ويتحلقون حول فراش عمر، وعيونهم تذرف الدموع)

عمر: كفكفوا أدمعكُمْ
أنتم رجال لا نساءْ
واعلموا أن أباكم راحلٌ
بين صباحٍ ومساءْ
إن يكن أحسن
فالجنة للمحسن في الأخرى جزاءْ
وإذا أذنبَ
فالنار لمنْ أذنب أو كان أساءْ
وبنو الميِّت للميّت من النار
إذا شاؤوا وقاءْ
أفتمسون - إذا متُّ- من النار وقاءْ؟

أكبر الأولاد: بل من الموت فداءْ

عمر: ليس للميّت فداءٌ قطُّ
فالموت على العبد قضاءْ
وقضاءُ الله لا يدفعُ
حسبي منكمُ أجر الدعاءْ
وثناء الناسِ

ولد آخر: قل: كيف سنحظى بالثناءْ؟

عمر: بالتزام البرّ والتقوى
وبالإحجام عن أهل الثراءْ
وبحب العلم
فالعلم بهاءٌ ونماءٌ وارتقاءْ
اجعلوه سيّداً للمال لا عبداً
تسودوا وتقودوا

مسلمة: أوما سُدنا وقُدنا؟
ولنا ملك تليدٌ وعتيدُ

عمر: دولة السيف بلا علم تبيدُ
وإذا ما قادها العلم فترقى وتزيدُ
إن نور العلم لا مال قديم أو جديدُ
كنزي الموروثُ والمجدُ التليدُ
إن تكونوا قادةً من قبله
زادكمُ العلم قيادةْ
أو تكونوا وسطاً
أعلاكمُ العلم وأعطاكم سيادةْ
وإذا كنتم من السوقة أغناكمْ
فعشتم في سعادةْ

عبد العزيز: ذاك ما كنا نرجيِّ
ولد آخر: شئت والله الذي كنا نشاءْ
ولد ثالث: ولك الوعدُ:
بأنا سوف نجفو الأغنياءْ
ولد رابع: ونوافي ونصافي العلماءْ
عمر: اخرجوا
لا تخلفوا الوعدَ
يجنِّكم بالغنى وعدُ السماءْ (٦)

(يخرج أبناء عمر، ويسود الصمت لحظات، ثم يقطع الصمت مسلمة بن عبد الملك)

مسلمة: خرجوا والخوف يغشاهم
كمن يخشون في العيش بليَّةْ
كيف تمضي؟
قبل أن تترك للأبناء وصيَّةْ؟
عمر: لمَ أوصي لهمُ بالمالِ؟
هم بعض الرعيةْ
بمَ أوصي؟
أنا ما أبقيت للوارث من مالي بقيةْ
رجاء: أنا منه بالذي يملك
يا «مَسْلَمَ» أعلمْ

مسلمة: كم يصيب الولد الوارث من أولاده؟
رجاء: عشرين درهمْ
مسلمة: يا أمير المؤمنينْ
أوصِ من مالي
فمالي بالذي توصي معينْ
فبآلاف الدنانير ثرائي
بالغ بضع مئينْ (٧)
مَنْ يصبهُ
فهو إن أوصى جدير بالذي يوصي قمينْ
عمر: كرم منك
ولكن ليس فيه مكرُمةْ
واغتنام – واحتمل نقدي- حرامٌ
ليس لي أن أغنمهْ
إنني أرفض ما تعرض رفضاً
يا بن عمي «مسلمةْ»
فليعد فوراً لبيت المال
إن كنت تخاف المأثمةْ
إنه مال الرعايا
من فقيرٍ مُسلمٍ أو مُسلمةْ
مسلمة: فليكن أبناؤك الأبرارُ
من بين الرعايا
فلهم حقٌّ إذنْ
عمر: حق الرعايا لا دنانير الهدايا
لِمَ أوصي بألوف لهمُ؟
وهي حقوق للبرايا
مسلمة: هم ذوو قربى
وللقربى مع الحق مزايا وعطايا
عمر: ما لهم من ميزةٍ
إلا كريمات السجايا
وهي مما أورث الفاروق أمي
من مزايا

وإذا شبوا فقد تطمسها سود الخطايا

مسلمة: يا «رجاءُ» الردُّ أعياني

رجاء: أعنّي

إنني أيضاً عييٌّ

و «رجاءٌ» بالذي يفتي أبو حفصٍ رضيٌّ

عمر: أصغِ يا «مَسْلَمُ»

أبنائيَ ما بين تقيٍّ وشقيٌّ

فأخو التقوى عن المكنوز من مالكَ

بالتقوى غنيٌّ

وإذا حاز الشقي المالَ

فالمال لخمرٍ أو لقمرٍ أو بغيٌّ

فلماذا أرِد الأخرى بأوزاري؟

وأوزار العصيٌّ

أنا لن أغدو في قبري عوناً

لغويٍّ لا تقيٌّ

ذاك ما أفتي به

رجاء: (والستار يسدل) أفتيتنا خير الفتاوى

في الوصايا

فلم الخوفُ إذا ما انتزعتنا

من ذرارينا المنايا؟

عمر: قل: لمَ الخوفُ وربُّ الخلق بالخلق حفيٌّ

بالأيامى واليتامى من فتاة وصبيٌّ

فهو – لا مال ابن عمي –

لهمُ خير وليٍّ ووصيٌّ

(تمت)

الهوامش:

(١) عمر: هو عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، كنيته أبو حفص، قيل: مات مسموماً سنة ١٠١هـ.

(٢) مَسْلَمَة: هو مسلمة بن عبد الملك أحد القادة الفاتحين في العصر الأموي (ت: ١٢١هـ).

(٣) سبط الفاروق: هو عمر بن عبد العزيز، لأن أمه ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) رجاء: هو رجاء بن حيوة (ت: ١١٢هـ) كان وزير عمر بن بن عبد العزيز، وسليمان بن عبد الملك قبله.

(٥) عبد العزيز: هو أحد أنجال عمر الاثني عشر.

(٦) في النص إشارة إلى قوله تعالى: (وفي السماء رزقكم وما توعدون). (الذاريات: ٢٢).

(٧) ذكر المؤرخون أن مسلمة بن عبد الملك اقترح على عمر أن يهبه من ماله ثلاث مئة ألف دينار، يوصي بها لبنيه.

أنت المهيمن

أنت المهيمن مالكاً وجداني — والفرد أنت فليس بعدك ثاني

سبحانك اللهم حبك وجهتي — وجميل عفوك سلوتي وأماني

أدعوك وحدك والدعاء وسيلتي — وشفاء قلبي وارتواء جناني

يا من بذكرك للحياة جلالها — والروح تعرف للوجود معاني

وأقول يا الله يشرق عالمي — والنور يملأ خاطري وكياني

وأتوه وحدي والحياة تشدني — لجحيم ذنبٍ باللهيب يراني

وأدور وحدي لا أفيقُ ولا أرى — إلا الشرود وحيرتي وهواني

محمد عباس علي داود- مصر